

الشرق في مرآة الرحالة الغربيين: دراسة في تمثّلات الاستشراق في أدب الرحلة في القرن 19م

## The East in the Mirror of Western Travelers: A Study of Orientalist Representations in 19<sup>th</sup>- century Travel Literature

د. مولاي سميرة، أستاذ محاضر- أ- \*

جامعة أحمد بن بلة وهران 1، moulai.samira@univ-oran1.dz

تاريخ القبول: 2026/05/06

تاريخ الاستلام: 2026/04/24

### ملخص:

يتناول هذا البحث صورة الشرق كما تشكّلت في كتابات الرحّالة الغربيين من خلال أدب الرحلة، بوصفه خطابا ثقافيا وأداة استشراقية ساهمت في تشكيل انطباعات نمطية عن العالم الشرقي. وينطلق من فرضية أن تلك الرحلات لم تكن مجرد توثيق للمشاهدات، بل كانت جزءا من مشروع معرفي استعماري هدف إلى بناء شرق متخيّل يخدم الأهداف الفكرية والسياسية للغرب. يركّز البحث على تحليل تمثّلات الرحالة للشرق بوصفه عالما غريبا وأرضا للخرافة والتخلّف، مقابل تقديم الذات الغربية كنموذج للرقى والعقلانية، كما يناقش توظيف الصور الثقافية والدينية والاجتماعية لتكريس الهيمنة الرمزية. ومن خلال دراسة نماذج من نصوص رحلات شاتوبريان وإدوارد ولیم لين، يبيّن البحث كيف تشكّلت صورة الآخر الشرقي ضمن ثنائية الشرق والغرب، وكيف أسهمت في بناء خطاب استشراقي ممتد في الفكر والسياسة والأدب. ويخلص إلى أن أدب الرحلة الغربي يعكس تصوّرات الغرب عن الشرق أكثر من حقيقته، مما يستدعي إعادة قراءته نقديا للتمييز بين قيمته المعرفية وما تشكّل فيه من أبعاد أيديولوجية.

كلمات مفتاحية: الإستشراق، الغرب، الشرق، أدب الرحلة، الآخر، فرانسوا شاتوبريان، إدوارد ولیم لين .

### Abstract:

This research examines the image of the Orient as constructed by Western travelers through travel literature, which served as a cultural and Orientalist discourse that shaped stereotypical representations of the Eastern world. It argues that these journeys were not neutral documentation, but formed part of a colonial epistemological project aimed at building an imagined Orient in service of Western intellectual and political goals. The research analyzes how travelers portrayed the Orient as a strange, exotic, and backward world steeped in superstition, while glorifying the Western self as a model of progress, rationality, and civilization. Drawing on texts by Chateaubriand and Edward William Lane, it reveals how the East-West binary shaped

Orientalist discourse across literature, politics, and wider thought. The research concludes that Western travel literature reflects Western perceptions about the Orient more than its reality, calling for a critical re-reading that distinguishes between its epistemic value and its ideological dimensions.

**Keywords:** Orientalism; the East; the Orient; travel literature ;Chateaubriand; Edward William Lane.

\*المؤلف المرسل

## 1. مقدمة:

يُعدّ أدب الرحلة لونا من ألوان الكتابة السردية التي تحمل قيمة معرفية وثقافية مزدوجة؛ إذ يجمع بين السرد الأدبي والتوثيق التاريخي، حيث يسجّل فيها الرحّالة مشاهداته وخبراته الشخصية أثناء تنقله بين الأمكنة. وهو يجمع بين الطابع التوثيقي والوصفي، ويعكس أشكال التفاعل مع البيئات الجديدة، سواء كانت طبيعية أو بشرية أو ثقافية. ويتجلى تميزه في قدرته على المزج بين المعطيات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية من جهة، وبين التأملات الذاتية والانطباعات النفسية من جهة أخرى، مما يجعله مصدرا غنيا لفهم التمثّلات الثقافية ومادة ثرية لفهم صورة "الآخر" كما تتمثل في وعي الكُتّاب والرحّالة، و مرآة للحقبة التي كُتب فيها، فالرحلة هنا ليست مجرد انتقال في المكان، بل هي أيضا تجربة معرفية ورؤية فكرية، تسجّل مشاهدات وانطباعات تتجاوز الحدود الجغرافية إلى آفاق الثقافة والحضارة، فهذا اللون الأدبي يوثّق مظاهر التحوّل الحضاري ويمثّل مجالا للتفاعل بين الثقافات، مانحا القارئ فرصة لاكتشاف العالم بعيون السارد.

وقد برع العرب في هذا الفن، فاشتهرت رحلاتهم على امتداد العصور، ولعلّ أبرزها رحلة ابن بطوطة التي عُدّت من أعظم ما أُلّف في هذا الباب. وإلى جانب قيمته الأدبية والترفيهية، يكتسب أدب الرحلات أهمية خاصة بوصفه مصدرا أساسيا للدراسات التاريخية المقارنة، لاسيما في العصور الوسطى، كما صنّفه باحثو الأدب المقارن في العصر الحديث ضمن أقسام هذا الحقل لما يتيح من مقاربات غنية ومتنوعة<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> . مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص17

والحديث عن الرحلة يقودنا إلى فضاء أرحب، هو فضاء الإستشراق (Orientalism) ، ذلك الحقل المعرفي الذي برزت ملامحه الأولى مع أواخر القرن الثامن عشر، وأضحى موضوعا مهما في نظر المفكرين الغرب.

فقد انصرف رواد الإستشراق إلى دراسة الشرق الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية على المستويات اللغوية والدينية والتاريخية والثقافية ، بوصفها جزءا لا ينفصل عن إشكالية الصراع الحضاري، حيث أسهم الإستشراق إسهاما كبيرا في تشكيل التصورات الأوروبية عن الإسلام من جهة، وفي بلورة مواقف الغرب تجاهه عبر القرون من جهة أخرى. مما أضفى على تمثلاته طابعا متحيزا أو موجها، أحال إلى الطريقة التي تُبنى بها صورة الآخر في الخطاب، سواء عبر الوصف المباشر أو من خلال الرموز و الإيماءات، و التأويلات التي تعكس موقف الكاتب ومرجعياته الفكرية.

وتكمن أهمية هذا البحث في دراسة نظرة الرحالة الغربيين إلى الشرق، بوصفها نصوصا تقع عند تقاطع الأدب والمعرفة، وتحمل في طياتها سرديات وصورا لعبت دورا كبيرا في تشكيل وعي الغرب بالشرق. فهذه الرحلات لم تقتصر على المشاهدات السطحية، بل قدّمت أنماطا متباينة من التصورات حول الدين والثقافة والعادات وأساليب العيش في المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي يستدعي قراءة نقدية تكشف أبعادها ودلالاتها.

تنبثق إشكالية هذه الدراسة من الحاجة الملحة إلى استجلاء البنى الاستشراقية المضمرّة في متن الخطاب الرحلي الغربي، وتحليل الأطر المرجعية والمنطلقات الإبيستيمولوجية التي أسهمت في تشكيل صورة الآخر المسلم وإعادة إنتاجها وفق رؤى مسبقة ومحمولات أيديولوجية موجّهة. وتتفرّع عن هذه الإشكالية المركزية جملة من التساؤلات البحثية الجوهرية التي تتقاطع عند محور العلاقة الجدلية بين أدب الرحلة والمشروع الاستشراقي، ويمكن صياغتها على النحو الآتي

- كيف تمثّل المستشرقون والرحالة الغربيون الحضارة العربية الإسلامية، وما الصورة التي ارتسمت في مخيلتهم عنها؟

- ما الدوافع الحقيقية والأبعاد الخفية التي كانت تُحرّك رحلاتهم المتكررة إلى المشرق، أهى فضول معرفي خالص أم وراءها خدمة مشاريع سياسية وإمبريالية أشمل؟.

- هل وقف المستشرقون من التراث الإسلامي موقف الباحث الموضوعي النزيه، أم أفضت بهم مرجعياتهم الثقافية والأيدولوجية إلى التحيز والتنميط والتزوير؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات، يركز البحث على جملة من الفرضيات المنهجية التي تُشكّل الإطار التفسيري للدراسة، أبرزها:

- أنّ الخطاب الرحلي الغربي لم يقدّم على الحياد المعرفي في تصويره للمشرق الإسلامي، بل اشتغل وفق منظومة من المسبقات والتصورات المستمدة من الأطر الاستشراقية السائدة، مما جعله خطاباً موجّهاً أكثر منه توثيقاً موضوعياً للواقع.
- أنّ هذه التمثيلات لم تنشأ في فراغ، بل تجاذبتها قطبان متوتران: النزعة الاستكشافية المعرفية الساعية إلى فهم الآخر وتصنيفه، والنزعة الأيديولوجية الاستعمارية الرامية إلى تبرير الهيمنة وإعادة إنتاج صورة التفوق الغربي.
- أنّ صورة المشرق في متون الرحلات الغربية ليست انعكاساً أميناً للواقع الموضوعي، بقدر ما هي بناء خطابي مركّب يكشف عن ذهنية الكاتب ومرجعياته الثقافية وموقعه من منظومة القوة والمعرفة.

وقد دفعتنا هذه التساؤلات مجتمعة إلى الخوض في موضوع ظلّ يستأثر باهتمام الباحثين في حقلي الدراسات الإسلامية والنقد الثقافي، ألا وهو صورة المشرق الإسلامي في كتابات الرحالة الغربيين خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وما أنتجوه من صور نمطية متباينة ومتشعبة، تراوحت بين الرؤية العدائية المتحيّزة القائمة على الإقصاء والتنميط، وبين المساعي الجادة نحو الفهم والتقريب والتواصل الحضاري. وينطلق هذا البحث من أهداف أساسية، تتمثل في:

- إبراز الدور الذي لعبه أدب الرحلة في تشكيل صورة الشرق لدى الغرب.
  - توضيح العلاقة بين تصورات الرحالة الغربيين وخطاب الاستشراق.
  - الكشف عن أبعاد التحيز أو الموضوعية في هذه النصوص.
  - المساهمة في إثراء الدراسات النقدية المقارنة التي تبحث في صورة "الآخر" وتمثّلاته عبر الأدب.
- و لقد اقتصرَت هذه الدراسة على نموذجين من الرحالة الأوروبيين، هما فرانسوا ريني شاتوبريان و François-René de Chateaubriand و إدوارد وليام لين Edward William Lane، وذلك لكونهما كتبَا عن المشرق، مما يتيح إمكانية المقارنة بين انطباعات الاستشراق في نصوصهما الرحلية، والكشف عن الكيفية التي صُوِّرت بها مصر داخل الخطاب الاستشراقي الأوروبي في القرن التاسع عشر.

وعليه، فإن موضوع "الشرق في مرآة الرحالة الغربيين: دراسة في تمثّلات الاستشراق في أدب الرحل" يتجاوز كونه مجرد قراءة في نصوص سردية، ليغدو بحثًا في أنماط الوعي وصور التمثيل التي أسهمت في تشكيل طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب عبر تاريخ طويل من التفاعل، بل ومن التوتر أحيانًا.

## 2. المحور الأول: الإطار النظري والمفاهيمي

سنستهل دراستنا بمحور نظري ومفاهيمي نُعنى فيه بتحديد مفهوم أدب الرحلة، ثم ننتقل إلى استجلاء دلالة الرحلة في اللغة، وبيان مفهوم الاستشراق، تمهيدًا لبلوغ فهم أعمق لعلاقة أدب الرحلة بالاستشراق وصولًا إلى دراسة نماذج مختارة لهذا اللون الأدبي .

### 1.2 . تعريف أدب الرحلة:

#### 1.1.2 . الرحلة لغة :

تُجمع المعاجم العربية على أن مادة "رحل" تدلّ على المضيّ في السفر<sup>2</sup>، والانتقال من مكان إلى آخر، فالارتحال هو السير<sup>3</sup>، بقصد السفر والتنقّل. وقد وسّع ابن فارس دلالة هذا الجذر، فأشار إلى ارتباطه بحياة العرب الرّحل الذين اتّسموا بعدم الاستقرار وكثرة التنقّل، بينما ركّز تاج العروس ولسان العرب على معنى الارتحال بوصفه خروجًا وتنقّلًا بقصد السفر<sup>4</sup>.

وعليه، تتفق المعاجم اللغوية على تعريف الرحلة بوصفها انتقالًا من مكان إلى آخر. وبناءً على ذلك، تُعدّ الرحلة حركة انتقال يقوم بها فرد أو جماعة من موضع إلى آخر، وهو المعنى اللغوي للكلمة. وفي هذا السياق، وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما لأغراض تجارية، في قوله تعالى: "إِلَّا يَلَافُ قُرَيْشٌ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ"<sup>5</sup>، كما قد يُراد بالرحلة أيضًا الوجهة أو المقصد.

### 2.1.2. الرحلة إصطلاحًا:

<sup>2</sup> .ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج2، ص: 457

<sup>3</sup> . المرتضى، الزبيدي، تاج العروس، ص: 61.

<sup>4</sup> . ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص: 276.

<sup>5</sup> . سورة قريش، الآية 1

عُرِفَ أدب الرحلة اصطلاحاً بأنه: "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق"<sup>6</sup>.  
كما يمكن تعريفه بأنه: "أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفاً له، ويسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"<sup>7</sup>.  
ولقد عرّفه الموسوعة العربية العالمية بأنه هو "الذي يصوّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلاد"<sup>8</sup>.

ومن التعريفات التي يمكن التوقف عندها تعريف إنجيل بطرس، إذ يرى أن أدب الرحلة يطلق على أدب الرحلة الواقعية، أي تلك التي ينجزها الرحّالة فعلياً إلى بلد من بلدان العالم، ثم يدوّن وصفاً له، مسجلاً مشاهداته وانطباعاته بقدر من الدقة والصدق، وبأسلوب جميل وقدرة على التعبير<sup>9</sup>.  
يضيف هذا التعريف تفصيلاً مهماً يتمثل في التأكيد على عنصرَي المشاهدة والانطباع، وعلى الشروط التي ينبغي أن يتّصف بها النص الرحلي مثل: الدقة، الصدق، جمال الأسلوب، ووضوح التعبير.  
غير أنّ هذه الشروط – وإن كانت تمنح النص قيمة إضافية – ليست شرطاً لازماً لتصنيفه ضمن أدب الرحلة، إذ إن كثيراً من الرحلات تفتقد بعضها، ومع ذلك تُعدّ نصوصاً رحلية.  
وبناءً على ما تقدّم، يُمكن تلخيص أدب الرحلة في كونه فنّ أدبي يقوم على تسجيل تجربة السفر، حيث يعتمد الكاتب إلى تدوين ما يعيشه من أحداث وما يرصده من مشاهدات وانطباعات حول ما يراه من للعادات والتقاليد والأحوال المختلفة أثناء تنقله بين البلدان. و يجمع هذا الفن بين السرد والوصف والتأمل، وقد يتّسم بدرجات متفاوتة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب، غير أنّ تحقّق هذه الخصائص ليس شرطاً لازماً لاندراج النص ضمن أدب الرحلة.

## 2.2. حقيقة الإستشراق:

<sup>6</sup> .إميل يعقوب و آخرون ، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي- إنكليزي - فرنسي، ص: 25.

<sup>7</sup> .انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنكليزي، ص: 52.

<sup>8</sup> . الموسوعة العربية العالمية، ج11، ص: 136.

<sup>9</sup> . إنجيل بطرس، المرجع السابق 1، ص: 52.

إنّ إدراك حقيقة أي مصطلح وضبط ماهيته يقتضي تحديده بدقة علمية، ولا يتأتى ذلك إلا بالجمع بين معناه اللغوي و اصطلاحه الخاص. ومن ثمّ، لا يمكن الوصول إلى التعريف الاصطلاحي لـ "الإستشراق" إلا بعد الوقوف على دلالاته اللغوية.

### 1.2.2. الإستشراق لغة :

تُصاغ لفظة "استشراق" على وزن استفعال، وهي مشتقة من مادة "شرق". فيقال: "شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً" أي طلعت، و"أشرقت الشمس" أي أضاءت وانبسطت على الأرض. وانبسط نورها. كما يُطلق "المشرق" على موضع الشروق والجهة الشرقية، ويُقال "التشريق" بمعنى التوجّه نحو جهة الشرق<sup>10</sup>.

ومعلوم في العربية أن زيادة الألف والسين والتاء على الفعل الثلاثي تفيد معنى الطلب. فإذا أضيفت إلى كلمة (شرق)، صار معنى استشراق هو: طلب الشرق أو طلب معرفة ما يتصل به. و تتجلى الدلالة الاشتقاقية لمصطلح الاستشراق في كونه يحمل دلالة (الطلب) والتوجه نحو المشرق، وهو ما ينسجم مع الرغبة الغربية في امتلاك المعرفة تمهيداً لامتلاك السلطة وجمع مدلولات كلمة (شرق) يتضح أن معناها يدور حول: جهة الشروق، والأخذ من ناحية المشرق<sup>11</sup>، والنور أو الضوء. ومن هنا سُمّي الاستشراق بهذا الاسم، لأن الغربيين قصدوا طلب علوم الشرق، وبوجه خاص علوم العرب والمسلمين، فاهتموا بدراسة الإسلام عقيدة وشرعية وحضارة.

### 2.2.2. الاستشراق اصطلاحاً :

رغم أن ظاهرة الاستشراق نوقشت مطوّلاً في كتب ودراسات ومؤتمرات وندوات عديدة، فإنها ما تزال مثار جدل واسع بين المؤيدين والمعارضين، وذلك بسبب اتساع مفهومها وتنوع النزعات الفكرية المرتبطة بها. ومن ثمّ فإن وضع تعريف جامع مانع للاستشراق أمر عسير، إذ تعددت التعريفات بتعدد الرؤى والاتجاهات.

عرّف محمود حمدي زقزوق الاستشراق بأنّه: "علم الشرق أو علم العالم الشرقي" (12).

10- الفيروزآبادي: ، القاموس المحيط، ص897 ، الزبيدي، تاج العروس، ج25، ص: 504

11- ابن منظور ، المصدر السابق ، ج10، ص174

12- محمود حمدي زقزوق، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ص18.

يرى عبد الجبار ناجي أن المستشرقين هم فئة من المؤرخين والكتّاب الأجانب الذين أفنوا جهودهم في دراسة قضايا الشرق الأوسط التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية<sup>13</sup>. أما إدوارد سعيد فقد كان أكثر دقة وعمقاً في ضبط المصطلح، فاعتبر الاستشراق "أسلوباً فكرياً قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب"<sup>14</sup>. كما رآه أداة غربية للهيمنة والسيطرة على الشرق من خلال المعرفة التي تنتج سلطة. وهو يربط هذا النشاط ليس بالباحثين فحسب، بل أيضاً بالمبشرين، والرحالة، والروائيين، والفلاسفة، ورجال السياسة والاستعمار<sup>15</sup>.

ومن هذا المنطلق، يرى سعيد أن الاستشراق يمثل أسلوباً غربياً للسيطرة وبسط النفوذ على الشرق، إذ يقول: "الاستشراق هو أسلوب غربي للسلطة على الشرق واستبائته وامتلاك السيادة عليه"<sup>16</sup>. وبهذا الفهم، يغدو الإستشراق معرفةً بالشرق أسهمت في إنتاج سلطة مكّنت أوروبا من بسط هيمنتها عليه.

### 3. تمثّلات الشرق في الرحلات الغربية المختارة

يُعَدُّ البحث في تمثّلات الشرق في الرحلات الغربية المختارة من المحاور المهمة في دراسات الاستشراق وأدب الرحلة، لأنه يكشف عن الكيفية التي تشكّلت بها صورة الشرق في المخيال الغربي من خلال نصوص رحلية لا تقتصر على الوصف، بل تحمل تصورات ثقافية ومعرفية مسبقة. ومن ثمّ يهدف هذا العنصر إلى تحليل أبرز هذه الانطباعات في نماذج مختارة، واستجلاء ما تحمله من رؤى بين الموضوعية والانطباع الذاتي، بما يتيح فهماً أعمق لطبيعة الخطاب الرحلي الغربي عن الشرق الإسلامي.

#### 1.3. رحلة فرانسوا رينيه دو شاتوبريان<sup>17</sup> (François-René de Chateaubriand)

تعتبر الرحلة التي قام بها الفرنسي فرانسوا رينيه دو شاتوبريان (1768-1848) إلى الشرق، بين جويلية 1806م وجوان 1807م، محطة فارقة في أدب الرحلات الرومانسي خلال القرن التاسع عشر. شملت جولته عدداً من المناطق مثل اليونان، ومصر، وفلسطين، وتونس، وسورية، ولبنان، وهي الرحلة التي

<sup>13</sup> - عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، 1981ص: 23.

<sup>14</sup> - أنظر: إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص 38.

<sup>15</sup> - إبراهيم عبد الكريم، الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، ص 20.

<sup>16</sup> - إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص: 39.

<sup>17</sup> كان شاتوبريان روائياً وشاعراً وكتّاباً مسرحياً وسياسياً ودبلوماسياً. يعتبر شاتوبريان من الرواد الأوائل للمدرسة الرومانسية في الأدب الفرنسي.

تبلورت لاحقاً في كتابه " رحلة من باريس إلى القدس " **Itinéraire de Paris à Jérusalem** ، الصادر سنة 1811 والذي أُعتبر دليلاً مرجعياً للغرب للرحلات إلى الشرق في ذلك الوقت. لم تكن هذه الرحلة لم تكن مجرد تسجيل للمشاهدات، بل حملت في طياتها تصوّرات استشرافية. أسهمت في ترسيخ صورة "الشرق المتخيل" في الوعي الغربي، وهو ما يجعل نصّه نموذجاً مبكراً لتحليل التمثّلات الإستشرافية في أدب الرحلة.

وانطلاقاً من هذا السياق المعرفي، يمكننا تفكيك الرؤية الإستشرافية لدى شاتوبريان عبر رصد ثلاثة نماذج تعكس فلسفته الحضارية وموقفه من الذات والآخر؛ وهي النماذج التي صاغت لاحقاً المرجعية الأدبية والسياسية للخطاب الاستشراقي الفرنسي، وساهمت في تنميط صورة الحاضرة الإسلامية في الوجدان الغربي.

### 1.1.3 النموذج الأول: الشرق مكان مقدّس

قدّم شاتوبريان في كتابه **Itinéraire de Paris à Jérusalem**، الشرق باعتباره "أرض الكتاب المقدس"، أين توجد ذكريات مسيحية حيّة. فقد كتب عن القدس قائلاً:

"Le seul moyen de voir un pays tel qu'il est, c'est de le voir avec ses traditions et ses souvenirs. C'est en effet la Bible et l'Evangile à la main que l'on doit parcourir la Terre Sainte. Les lecteurs chrétiens demanderont peut-être à présent quels furent les sentiments que j'éprouvai en entrant dans ce lieu redoutable ; je ne puis réellement le dire. Tant de choses se présentaient à la fois à mon esprit, que je ne m'arrêtais à aucune idée particulière."<sup>18</sup>

"إنّ السبيل الوحيد لرؤية بلدٍ على حقيقته هو أن تراه في ضوء تقاليده وذكرياته. وبالفعل، لا بدّ من اجتياز الأرض المقدسة والإنجيل والكتاب المقدس في اليد. وربما يتساءل القراء المسيحيون الآن عن المشاعر التي انتابتني لحظة دخولي هذا المكان المهيّب؛ غير أنني لا أستطيع حقاً أن أفصح عنها. إذ كانت أشياء كثيرة تتزاحم في ذهني في آن واحد، حتى إنني لم أتوقف عند فكرة بعينها."

تكشف هذه الفقرة عن جملة من الأبعاد الدلالية الجديرة بالوقوف عندها وتحليلها؛ إذ يُصرّح فرانسوا رينيه دي شاتوبريان منذ مستهل حديثه بأن فهم الأرض المقدسة مرتبط بالنظرة الدينية المسيحية.

<sup>18</sup> vicomte de Chateaubriand, François-René. Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, France, Bernardin-Béchet, 1859, p 276.

وهذا يعني أن رؤيته للمكان لم تأت من الواقع الذي يعيشه، بل من تصوّر مسبق موجود في ذهنه، وهو ما يعكس سمة معروفة في الخطاب الاستشراقي، حيث يُقدّم النص على الواقع. وعندما يدعو إلى استحضار الإنجيل والكتاب المقدس أثناء زيارة تلك الأماكن، فإنه يجعل المكان كأنه مجرد امتداد للنص الديني الغربي، متجاهلا التاريخ والحضور الإسلامي والعربي العميق في هذه الأرض. يمكن القول إن هذه الفقرة تمثّل مثالا واضحا لما وصفه إدوارد سعيد بالاستشراق، حيث يعيد الغرب تصوير الشرق وفق أفكاره المسبقة، لا كما هو في الواقع.

## 2.1. النموذج الثاني: الشرق عند شاتوبريان عالم متخلف

لم يكتف شاتوبريان في وصفه الرحلي بالبُعد التقديسي في تمثّله للشرق، بل يُضيف إليه بُعدا استعلائيا يتجلى في نظرتة إلى الحضارة الإسلامية، ولعل أبلغ تحليلات هذه النظرة ما صوّره في وصفه لمدينة القاهرة، حين رسم مشهد دخوله إليها بعبارات تنضح بالتناقض الصارخ بين عظمة الحضارة الإسلامية في ماضيها المجيد وما آلت إليه في حاضرها من ضعف وتردّد حيث قال:

**Nous y entrâmes par des voiries et par un faubourg détruit, au milieu des vautours qui dévoraient leur proie".<sup>19</sup>**

"دخلنا إليها عبر مكبات النفايات وضاحية مهدامة، وسط النسور التي كانت تنهش فرائسها".

هذه الصورة المحمّلة بدلالات الدمار والموت ليست مجرد توثيق لمشهد عابر، بل هي بناء خطابي مقصود يصوّر المدينة الإسلامية العريقة في مشهد الهلاك و الزوال، مسقطا عليها صورة التقهقر و التراجع التي يعيشها الواقع الإسلامي الآن ، وكأن شاتوبريان يُوظّف قلمه لا لإستكشاف المكان بل لتثبيت حكم مسبق يُغذّيه وعيٌ استشراقي متشربّ بثنائية التفوق الغربي والإنحطاط الشرقي.

ومن أبرز ما يتجلى فيه المنحى الإستعلائى أيضا وصفه للحَيّ الأوروبي و الذي يطلق عليه أيضا حيّ الإفرنج بالقاهرة، إذ لم يكتف بتصويره مكانا منعزلا، بل وظّف هذا الإنعزال توظيفا إقناعيا حين قال:

**"Nous descendîmes à la contrée des Francs, espèce de cul-de-sac dont on ferme l'entrée tous les soirs, comme les cloîtres extérieurs d'un couvent"<sup>20</sup> .**

"نزلنا في حيّ الإفرنج (الحَيّ الأوروبي) ، وهو شبيه بنهاية طريق مسدود، تُغلق بوابته كلّ مساء، كما تُغلق الأفنية الخارجية للأديرة".

<sup>19</sup>vicomte de Chateaubriand, François-René, Op,Cit, p 374

<sup>20</sup>. Ibid.,p 374

واصل شاتوبريان في هذه الفقرة نسج خطابه الاستشراقي ذاته، غير أن المفارقة هنا تبلغ ذروتها حين ينقلب المنظور ليصف الحيّ الغربي المنعزل داخل المدينة الإسلامية، فشاتوبريان لا يصف لنا مجرد حيّ مغلق، بل يرسم صورة الغربي المحاصر بين جدران مدينة لا تقبله ولا تأمن له، ويزيد الأمر دلالة تشبيهه للحي بالدير، الذي يُحيل ضمنا إلى صورة العالم المسيحي النقي المغلق على نفسه حفاظا على هويته و المحاصر في محيط إسلامي معاد، وتُقلب الحقيقة التاريخية هنا رأسا على عقب إذ يُحوّل الكاتب الغازي إلى ضحية. وبهذا الأسلوب، يقدّم الكاتب الغرب كأنه فضاء آمن ومتحضّر، في حين يصوّر الشرق كمكان ينطوي على الخطر.

### 3.1.3 النموذج الثالث: صورة العربي المسلم بين التوحش المزعوم وسلب الهوية الحضارية

في هذا النموذج تجاوز شاتوبريان الوصف إلى إطلاق أحكام متحيّزة ضد العرب المسلمين، قائمة على مقابلة بين ماض يُقدّم بوصفه مجيدا ومرتبطا بالمسيحية، وحاضر يُصوّر بشكل سلبي في صورة العربي المسلم، حيث قال :

"Ajoutons qu' un contraste extraordinaire rend encore ces frappantes car en sortant de la grotte où vous retrouvé la richesse les arts la religion des peuples civilisés êtes transportés dans une solitude profonde au milieu des arabes parmi des sauvages demi nus et des musulmans sans foi lieux sont pourtant ceux là mêmes où s opérèrent tant mais cette terre sainte n'ose plus faire éclater au son allégresse et les souvenirs de sa gloire sont renfermés sein <sup>21</sup>"

"ودعنا نضيف أن تناقضا استثنائيا يجعل هذه المشاهد أكثر إثارة للدهشة؛ فما إن تخرج من الكهف الذي وجدت فيه ثروات الشعوب المتحضرة وفنونها ودينها، حتى تجد نفسك بغتة في عزلة عميقة وسط العرب، بين متوحشين أنصاف عراة ومسلمين لا دين لهم. ومع ذلك فهذه هي البقاع ذاتها التي شهدت أعظم الأحداث وأجلّها... بيد أن هذه الأرض المقدسة لا تجرؤ بعد الآن على البوح بفرحها، وذكريات مجدها باتت مدفونة في أعماق صدرها."

<sup>21</sup>.vicomte de Chateaubriand, François-René, Op ,Cit,p225

تُمثّل هذه الفقرة من أكثر النصوص كشفًا عن العقلية الاستشراقية في كتابات شاتوبريان وأشدها نزوعًا، إذ وظّف فيها قاموسًا من الأوصاف التي شاع تداولها في الخطاب الأوروبي إبّان القرن التاسع عشر، من قبيل "متوحشون أنصاف عراة" (sauvages demi-nus) و"مسلمون بلا إيمان" "musulmans sans foi" (مسلمون بلا إيمان)، لينسج من خلالها ثنائية متوترة بين عالمين لا يلتقيان: عالم الكهف الذي يحتزن إرث الحضارة وفنونها وأديانها، وعالم الخارج الذي يسكنه العرب المسلمون في صورة المتوحش المنحط، وفي هذه المقابلة الصارخة يتكشف منطق استشراقي راسخ يُخرج الحضارة الإسلامية من دائرة التاريخ الإنساني، متجاهلاً أن هذه الحضارة كانت في القرون الوسطى منارة العلم والمعرفة حين كانت أوروبا تتخبط في ظلام جهلها.

ويبدو جلياً أن الغاية من هذا الخطاب لم تكن الوصف الموضوعي للواقع المشاهد، بل استثارة شعور الحسرة في وجدان القارئ الأوروبي على الأرض المقدسة التي آلت في نظره إلى من لا يستحقها، وتهمئة الضمير الغربي لقبول فكرة استعادة وصلها بالحضارة الأوروبية. وبهذا المعنى تتجاوز هذه الفقرة حدود الأدب الرحلي لتتخطى في مشروع إيديولوجي أعمق، يرمي إلى فصل الحضارة عن أصحابها وتقديم الوصاية الغربية عليهم لا بوصفها اختياراً سياسياً بل ضرورة تاريخية وحضارية لا مناص منها.

#### 4.1.3 تمثيلات الاستشراق في نصوص شاتوبريان:

تتجسد رؤى الاستشراق في رحلة شاتوبريان من خلال ثلاث آليات رئيسية وهي:

- **التصوير الانبھاري:** يقوم على إبراز التفاصيل الحسية اللافتة وتكبير المشاهد غير المألوفة، بحيث يُقدّم الشرق كعالم غريب يميل إلى الطابع الأسطوري في نظر القارئ الأوروبي، بعيداً عن تصوير واقعي موضوعي، مما يجعله مجالاً واسعاً لإثارة الخيال والانبھار.
- **التعميم النمطي:** الذي يظهر جلياً في نصوص شاتوبريان، والذي تتحول فيه الملاحظات الجزئية إلى أحكام مطلقة ترسّخ صورة نمطية عن الشرق والشرقيين. حيث لا يكتفي شاتوبريان بوصف أفراد أو مواقف بعينها، بل يعمّم أحكاماً على جماعات بأكملها، فيقدّم العرب في صورة واحدة ثابتة، تختزلهم في صفات بدائية أو سلبية، وهو ما يعكس آلية من آليات الخطاب الاستشراقي التي تقوم على تبسيط الواقع المركّب وتحويله إلى صور نمطية تخدم رؤية أيديولوجية مسبقة.
- **الخطاب الإنفعالي الإستشراقي:** يقوم هذا الخطاب على مزج المشاعر بالانبھار، فيبدو كأنه تعبير صادق عن تجربة شخصية، لكنه في الحقيقة ليس محايداً، بل نابع من رؤية غربية ترى نفسها متفوقة. ومن خلال هذا الأسلوب، يُعاد تقديم الشرق بصورة تتماشى مع التصورات الإستشراقية وترسّخها.

### 2.3. رحلة إدوارد ولیم لین Edward William Lane :

يُعدّ المستشرق الإنجليزي إدوارد ولیم لین<sup>22</sup> (1801-1876) من أبرز الأسماء التي أسهمت في تشكيل الصورة الغربية عن الشرق الإسلامي إبان القرن التاسع عشر، إذ أقام في مصر على فترتين متباعدتين بين عامي 1825 و1828، ثم عاد إليها لسنوات لاحقة، موثقاً مشاهداته في جملة من المؤلفات التي غدت مراجع أساسية في المكتبة الإستشراقية، وفي مقدمتها كتابه الشهير الصادر عام 1836 تحت عنوان: "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم".

#### An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians

وقد تجاوزت رحلته إلى مصر حدود التوثيق والرصد، لتتنويع على انطباعات إستشراقية متشابكة تتجاوز دوافع متعددة .

وعلى غرار ما اتبعناه في تحليل نصوص شاتوبريان ودراسة تمثلاته الاستشراقية، سنتوقف هنا عند جملة من النماذج المنتقاة من كتاب لین "عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم"، نُخضعها للتحليل والمساءلة النقدية ذاتها، كاشفين عن الأبعاد الإيديولوجية المضمرة في خطابه، والآليات التي اشتغل بها على تشكيل صورة المصري المسلم وإعادة إنتاجها في المخيال الأوروبي.

### 1.2.3 النموذج الأول :حول المصريين وعلاقتهم بالخرافة:

يُقدّم لین المصريين في مستهل حكمه عليهم بوصفهم أناسا غارقين في الخرافة والوهم، وهو حكم عام يعكس إستراتيجية إستشراقية مدروسة تقوم على تصوير المجتمع الشرقي مجتمعا غير عقلاني يفتقر إلى ملكة التمييز والنقد، وما هذا الحكم إلا مدخل يُهيئ به القارئ الغربي لتلقّي ما سيأتي من ممارسات وعادات، لا بوصفها تعبيرات ثقافية لها سياقها وجذورها، بل شواهد تُثبت صحة هذه الصورة النمطية المرسومة سلفا، قال لین:

«The Arabs are a very superstitious people; and none of them are more so than those of Egypt»<sup>23</sup>.

"العرب شعب بالغ التدين الخرافي، ولا أحد منهم يفوق في ذلك مصريهم".

وفي هذه العبارة الموجزة ما يكشف عن منهج لین في التعامل مع المجتمع المصري؛ إذ يرفع حكمه من مستوى الملاحظة الجزئية إلى مستوى القانون الكلي الشامل، فلا يصف فردا أو فئة بعينها، بل يُصدر

<sup>22</sup> إدوارد وليام لين Edward William Lane (1801-1876) رحالة بريطاني، وعالم بالآثار المصرية، واسم معروف لدى

أغلب العلماء المهتمين بدراسات الشرق الأوسط. كتابه الشهير وصف عادات المصريين المعاصرين وأنماط حياتهم .

<sup>23</sup> Edward W. Lane, Account of the Manners, Op, Cit p, 223.

حكما على العرب جميعا ثم يُتَوَجَّح المصريون بالدرجة القصوى منه، في تسلسل خطابي يُوهم بالموضوعية العلمية وهو في حقيقته بناء أيديولوجي يُعيد إنتاج ثنائية العقلانية الغربية والخرافة الشرقية.

ويعضي لين في تعميق هذه الصورة النمطية ويُعزّزها حين يربط الخرافة بالدين الإسلامي ذاته، فلا يكفي بوصف المصريين بالمتشبتين بالأوهام، بل يُرجع هذه الأوهام في نظره إلى القرآن الكريم بوصفه مصدرها ومرجعها، إذ يقول:

**"Many of their superstitions form a part of their religion; being sanctioned by the Kur-án; and the most prominent of these is the belief in 'Ginn,' or Genii<sup>24</sup>."**

"كثير من خرافاتهم تُشكّل جزءا من دينهم، إذ يُجيزها القرآن ويُقرّها؛ وأبرز هذه الخرافات الإيمان بالجنّ أو الجنيّ".

في هذا القول تجاوز صريح لحدود الوصف الموضوعي إلى ما هو أخطر وأبعد أثرا، وهو الطعن في المرجعية الدينية الإسلامية وإدراج القرآن الكريم في منظومة الخرافة والوهم. وهو موقف يكشف عن خلفية دينية مسيحية مضمرة تنظر إلى الإسلام نظرة دونية، متجاهلا أن مفهوم الجن في القرآن الكريم يندرج ضمن منظومة عقديّة متكاملة لتي تُقرّها سائر الأديان السماوية، ومن ثمّ فإنّ اختزال هذا المفهوم العقدي الراسخ في خانة الخرافة الشعبية ليس زلة منهجية عابرة، بل هو موقف أيديولوجي مقصود يُسهّم في تكريس صورة الإسلام دينا يُغذّي الجهل ويُرسّخ الوهم في نفوس أتباعه

ويستمر لين في بناء صورته النمطية عن المصريين، منتقلا من الأحكام الكلية إلى تسجيل التفاصيل اليومية ، غير أنه يُوظّفها هنا توظيفا انتقائيا يخدم الصورة ذاتها التي رسمها من البداية، إذ يقول:

**It is a common custom of this people, on pouring water, etc., on the ground, to exclaim, or mutter, 'Destoor;' that is, to ask the permission, or crave the pardon, of any ginnee that may chance to be there...<sup>25</sup>"**

"من العادات الشائعة لدى هؤلاء القوم أنهم حين يصبّون الماء أو نخوه على الأرض، يُردّدون بصوت مرتفع أو همس كلمة 'دستور' (طلب الإذن)، أي يستأذنون أيّ جنيّ قد يكون في ذلك المكان أو يطلبون عفوّه".

وفي هذا المشهد اليومي الذي يُسجّله لين ، ما يُجسّد آلية استشراقية دقيقة تقوم على اقتطاع الممارسة الثقافية من سياقها الاجتماعي والديني وإعادة تقديمها للقارئ الغربي في إطار الغرابة. فما يراه لين

<sup>24</sup> Ibid ,p.223.

<sup>25</sup> Ibid ,p.224

ضربا من ضروب الوهم الخرافي ليس في حقيقته سوى تعبير عن أدب إسلامي أصيل يُوصي بالتحرز والتنبّه في التعامل مع عالم الغيب، بيد أن لين يتعمّد تجريد هذه الممارسة من أي بُعد ديني أو ثقافي راسخ، ليقدّمها شاهدا إضافيا على ما ذهب إليه من قبل من أنّ المصريين شعب غارق في الخرافة لا يُفرّق بين الموروث الديني الأصيل وأوهام العامة.

وفي سياق رصدہ للمعتقدات الشعبية المرتبطة بالجنّ، يتوقف إدوارد لين عند ممارسة مرتبطة بشهر رمضان المبارك، فيقول:

**During the month of Ramadan, the ginn, it is said, are confined in prison; and hence, on the eve of the festival, which follows that month, some of the women of Egypt, with the view of preventing these objects of dread from entering their houses, sprinkle salt upon the floors of the apartments; saying, as they do it, 'In the name of God, the Compassionate, the Merciful.'**<sup>26</sup>

"يقال إن الجنّ يُحبسون في السجن طوال شهر رمضان؛ ولذلك فإن بعض نساء مصر، في ليلة العيد الذي يعقب هذا الشهر، يرشّن الملح على أرضية الغرف درءا لهذه الكائنات المرعبة من الدخول إلى بيوتهن، قائلات وهن يفعلن ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم".

وتستوقفنا في هذا الفقرة ملاحظة جوهريّة تتصل بمنهج لين، إذ لا يُفرّق بين ما تُسندہ النصوص الدينية الصحيحة، وما هو موروث شعبي متداول، ذلك أنه حبس الشياطين في رمضان ليست من قبيل الأساطير أو الخرافات، بل هي حقيقة ثابتة بصريح الحديث النبوي الشريف؛ إذ روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتُحْتَفَتُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِقَتِ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ"<sup>27</sup>، غير أن لين يُدرجها في خانة الخرافة دون أن يُكلّف نفسه عناء التمييز أو التمييز. والأشدّ دلالة أن النساء يستفتحن فعلهن بالبسملة التي هي في صميم الهوية الإسلامية، وهو ما كان يستوجب من الباحث الموضوعي التمييز بين الموروث الشعبي والثابت الديني، بدلا من اختزالهما معا في خانة الخرافة و تقديمهما للقارئ الغربي شاهدا على انحطاط الوعي الديني عند المصريين وانحطاط تصوراتهم.

<sup>26</sup> Edward W. Lane, Account of the Manners, Op, Cit, p p 233-232

<sup>27</sup> صحيح البخاري، ج: ص: ، 123، رقم الحديث : (3277).

### 2.2.3 النموذج الثاني: تصوير الشرق كمجتمع غريب :

وينتقل لين من رصد المعتقدات إلى تصوير مشاهد الحياة اليومية، فيتوقف عند المقاهي بوصفها مكانا اجتماعيا مميزا في المجتمع المصري، إذ يقول:

«Those of the lower orders seem to be extremely happy with their pipes and coffee, after the occupations of the day, in the society of the coffee-shop<sup>28</sup>».

"يبدو أن أبناء الطبقات الدنيا سعداء للغاية بغليوهم وقهوتهم، بعد انقضاء أعمال اليوم، في رحاب المقهى".

وفي هذه العبارة الموجزة ما يكشف عن مسلك لين في قراءة المجتمع المصري؛ فهو لا يصف مشهدا اجتماعيا عابرا، بل يبدأ بتصنيف أصحابه طبقيا عبر وسمهم بـ"الطبقات الدنيا"، موظفا بذلك معايير التراتب الاجتماعي الغربي في قراءة مجتمع يختلف في بنيته وقيمه عن النموذج الأوروبي. و يُقدّم سعادتهم في صورة تُوحى بالبساطة المفرطة والاكتماء بأدنى المتع، مما يُرسّخ صورة الشرقي المستسلم للراحة والقانع بما هو دون الهمة والسعي، في مقابل الصورة الأوروبية للإنسان المنتج العامل الساعي إلى الرقي والتقدم.

### 3.2.3 النموذج الثالث : المرأة المصرية بين الوصف والتعميم في رحلة لين

#### - التعميم الأخلاقي للنساء المصريات:

ويعتمد التعميم النمطي عند لين ليطال المرأة المصرية، إذ لا يتورّع عن إصدار حكم أخلاقي عام عليها، فيقول:

«The women of Egypt are said to be generally prone to criminal intrigues; and I fear that, in this respect, they are not unjustly accused. Sometimes a husband keeps his wife in the house of her mother, and pays the daily expenses of both. This ought to make the mother very watchful over the conduct of her daughter...»<sup>29</sup>

"يُقال إن نساء مصر يميلن بوجه عام إلى العلاقات المحرّمة، وأخشى أنهن في هذا الشأن لسن متّهمات بغير حق. وأحيانا يُبقي الزوج زوجته في بيت أمها ويتكفّل بنفقات كليتهما، وكان من المفترض أن يحمل ذلك الأمّ على أن تكون شديدة اليقظة في مراقبة سلوك ابنتها..."

<sup>28</sup> Edward W. Lane, Account of the Manners ,Op,Cit, p29.

<sup>29</sup> Ibid, p 222

تُمثّل هذه الفقرة نموذجاً صارخاً على التعميم الأخلاقي الذي يُميّز الخطاب الاستشراقي في أسوأ تجلياته؛ إذ يبيّن إدوارد لين حكمه على نساء مصر جميعهن انطلاقاً من مجرد ما يُنداول من أقاويل، معترفاً هو نفسه بأنها لا تعدو كونها ما يُقال، ثم لا يلبث أن يُضفي عليها مصداقية بقوله "أخشى أنهن لسن متّهمات بغير حق"، وكأنّ الشائعة لا تحتاج إلى دليل متى وافقت الصورة المرسومة سلفاً في ذهنه. ويزيد الأمر إشكالاً أن لين يُقدّم النظام المعيشي القائم على إقامة الزوجة في بيت أمّها تفسيراً أخلاقياً مريباً، متجاهلاً ما قد يكون وراءه من اعتبارات أسرية و إجتماعية ، كاشفاً بذلك قصوره عن استقراء الواقع الاجتماعي المصري من الداخل، وإصراره على إخضاعه لمعايير ثقافية وافدة لا تمت إلى سياقه بصلة ولا تُعبّر عن مضامينه الحقيقية. ويواصل إدوارد سرده متوقفاً عند تفصيل لغوي يبدو في ظاهره بريئاً، غير أنه يخدّم في باطنه المنطق الإستشراقي ذاته، إذ يُفسّر تسمية أم الزوج بالحماة فيقول:

**"Also It is said that the mother in law is for this called hamah.<sup>30</sup>"**

**"ويُقال أيضاً أن أم الزوج تُسمى لهذا السبب (حماة) ."**

وفي هذا التفسير اللغوي ما يُعزّي مسلك لين ويكشف زيفه؛ إذ لا يكتفي بإطلاق الأحكام الأخلاقية على المرأة المصرية، بل يذهب إلى توظيف اللغة العربية دليلاً على ما يدّعيه، مُوهماً بأن لفظة "حماة" إنّما اشتُقت من ذلك السياق الأخلاقي المريب الذي أشار إليه من قبل، متجاهلاً أن هذه الكلمة العربية الأصيلة ذات جذر لغوي راسخ في معاجم اللغة العربية لا صلة له بالبتّة بما يذهب إليه، وهو ما يُجسّد آلية استشراقية خطيرة تتمثل في توظيف اللغة وتحريف دلالاتها لخدمة أحكام مسبقة، بدلاً من الاحتكام إلى أصول العلم اللغوي ومناهجه الموضوعية.

**- نظرة إدوارد لين إلى المرأة المصرية عزلة المرأة المصرية**

ويتناول لين في موضع آخر قضية عزلة المرأة المصرية وحبسها في المنزل، فيقول:

**"it might be imagined that the women of the higher and middle classes feel themselves severely oppressed, and are much discontented with the state of seclusion to which they are subjected: but this is not commonly the case; on the contrary, an Egyptian wife who is attached to her husband is apt to think, if he allow her unusual liberty, that he neglects**

<sup>30</sup> -Edward W. Lane, Account of the Manners, Op, Cit p222.

her, and does not sufficiently love her; and to envy those wives who are kept and watched with greater strictness.<sup>31</sup>"

"قد يُتَخَيَّل أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشعرون بالقهر الشديد، وأنهن ساخطات على حال العزلة التي يُخضعن لها، غير أن الأمر في الغالب ليس كذلك؛ بل على العكس من ذلك، فإن الزوجة المصرية المتعلقة بزوجها كثيراً ما تظن، إن أتاح لها حرية غير معهودة، أنه يُهملها ولا يُحبها بما يكفي، وقد تحس بالغيرة من تلك الزوجات اللواتي يُحفظن ويُراقبن بصرامة أشد".

تستمد هذه الفقرة قيمتها من كونها تُجَلِّي بوضوح الذهنية الاستشراقية في خطاب إدوارد وليم لين؛ إذ يقدّم صورة تبدو "تبريرية" لعزلة النساء، مصوّراً إياها لا بوصفها قيّدا مفروضاً، بل باعتبارها وضعاً مقبولاً، بل ومرغوباً من قِبل النساء أنفسهن. وبهذا يضع القارئ الأوروبي أمام نموذج قيمي مقبول، تُفهم فيه الحرية على أنها علامة إهمال، بينما تُؤوّل المراقبة الصارمة باعتبارها دليل محبة واهتمام. غير أنّ هذا الطرح يقوم على تعميم واسع يُقدّم سلوكاً معيّناً بوصفه سمة عامة، مما يعكس تداخلاً بين الملاحظة الاجتماعية والرؤية الاستشراقية التي تميل إلى تبسيط الواقع وإعادة صياغته ضمن تصورات مسبقة.

#### 4.2.3 تمثيلات الإستشراق في نصوص إدوارد لين:

تتجلّى ملامح الخطاب الإستشراقي في كتاب لين في تناوله للمجتمع المصري عبر ثلاث آليات رئيسية وتتمثل في:

- **الوصف التفصيلي:** حيث اهتم لين بجمع تفاصيل دقيقة عن الممارسات اليومية، و الدينية والحياة الأسرية، ولكن بزواية رؤية تجعل الغرب دوماً معياراً للمقارنة، فجاء وصفه للمجتمع المصري مقياساً للاختلاف عن النموذج الأوروبي لا توثيقاً موضوعياً لواقع قائم بذاته.
- **الرؤية الوصفية المجردة:** و ذلك بتحويل الأفراد إلى مجرد عينات للدراسة وموضوعات للملاحظة بدل النظر إليهم كأفراد فاعلين ذوي إرادة وتاريخ.
- **التحيز الديني:** فسّر لين أغلب السلوكيات والعادات المصرية من زاوية دينية ضيّقة، جاعلاً من الإسلام مرجعاً وحيداً لكل ما يرصده من ظواهر، بل تجاوز ذلك إلى تصويره سبباً في الجمود والتخلف وعقبة في وجهه تحضر و رقي المجتمع المصري، وهو ما أفضى في نهاية المطاف إلى صورة نمطية مشوّهة لا تعكس حقيقة هذا الدين ولا عمق أثره الحضاري.

<sup>31</sup> Ibid, p185.

#### 4. الصورة النمطية في نصوص كل من ادوارد و شاتوبريان بين الإنبهار والاستعلاء

لم يتعامل كلٌّ من شاتوبريان ولين مع الشرق بوصفه مجرد مكان للعيش أو للزيارة، بل اتخذ منه موضوعاً للدراسة والتحليل وإنتاج معرفة تُسهم في تشكيل الرؤية الأوروبية عنه والعمل على ترسيخها. فقد انتهج لين في كتابته أسلوباً موسوعياً سعى من خلاله إلى تقديم صورة شاملة عن حياة المصريين للقارئ الغربي، وازعاً نفسه في موقع الوسيط القادر على تفسير المجتمع المصري وشرح عاداته وتقاليد الغرب، وهو ما يُجسّد ضرباً من الهيمنة المعرفية التي تُعدّ ركيزة أساسية في بنية الخطاب الاستشراقي.

وبالموازاة مع ذلك، صوّر شاتوبريان الشرق على أنّه بيئة غنية بالجمال والإلهام، غير أنه ظلّ في نظره مجالا للتفسير الغربي ومادة للتمثيل الثقافي الذي يعيد تأكيد مركزية أوروبا.

وهكذا تشكّلت في نصوصيهما صورة نمطية مزدوجة تجمع بين الإنبهار بسحر الشرق وغموضه، والنظر إليه في الوقت ذاته بعين الاستعلاء بوصفه عالماً متخلفاً يحتاج إلى التدخل الأوروبي، وهو ما يُجسّد آلية استشراقية راسخة قامت على تمثيل الآخر بين الانبهار والاحتقار، وفي هذا الإطار يرى إدوارد سعيد أن مثل هذه الكتابات أسهمت في بناء شرق مفهوم ومسيطر عليه<sup>32</sup>، عبر إنتاج معرفة دقيقة، صيغت لاحقاً لخدمة مشاريع السلطة الاستعمارية الأوروبية.

#### 1.4. الإنبهار في نصوص لين وشاتوبريان

يتجلى الإنبهار في نصوص كلٍّ من لين وشاتوبريان، غير أنه يتخذ في كل منهما مساراً مختلفاً؛ فلين يُعبّر عنه من خلال اهتمامه الدقيق بتفاصيل الحياة اليومية في مصر، من عادات شعبية وممارسات دينية وعلاقات أسرية، مما يمنح القارئ الأوروبي صورة حية عن المجتمع المصري تستثير فضوله وتشدّ انتباهه. أما شاتوبريان فيتجلى انبهاره في تصوير الشرق مكاناً ساحراً مثقلاً بالرموز الدينية والتاريخية والمشاهد الطبيعية الخلابة، مما يُغذّي المخيلة الأوروبية ويُضفي على كتاباته طابعاً رومانسياً جذاباً. بيد أن هذا الإنبهار في كلتا الحالتين لم يكن غاية في ذاته، بل كان مدخلاً لإعادة إنتاج صورة للشرق وفق منظور غربي يجعل من الآخر موضوعاً للدهشة والاستغراب لا طرفاً في عملية الحوار الحضاري.

#### 2.4. الاستعلاء في نصوص لين وشاتوبريان

<sup>32</sup> هيثم رأفت السباعي، مقدمة في تأسيس علم الاستغراب التطبيقي، ص 41

يبرز الإستعلاء في نصوص كل من إدوارد ولیم لین فرانسوا شاتوبريان من خلال إبراز تفوّق القيم الأوروبية على المجتمع الشرقي. ويتجلى هذا بوضوح في كتابات لین حيث يُحكم على الممارسات اليومية في مصر بوصفها غريبة أو متخلّفة، فهو على الرغم من إعجابه ببعض مظاهر الحياة المصرية مثل الكرم والحياة الاجتماعية النابضة، فإنه لا يخلو من أحكام تقييمية ذات طابع استعلائي، حيث يصف المصريين أحيانا بأنهم ميّالون إلى الخرافة أو يفتقرون إلى العقلانية، كما يصوّر حياتهم بأنها راكدة بالمقارنة مع أوروبا الحديثة، مع التأكيد المستمر على تفوّق القيم والمعايير الأوروبية، مما يجعل الثقافة المصرية خاضعة لتقييم الغرب. أما شاتوبريان فيصوّر الشرق على أنه متخلّف حضاريا مقارنة بأوروبا، يحتاج دائما إلى التفسير والفهم الغربي، مما يرسخ هيمنة النظرة الأوروبية ويضع الشرق في موقع دوني ضمن الخطاب الثقافي.

#### 4. الخطاب الرحلي الاستشراقي عند إدوارد لین و فرانسوا شاتوبريان ودوره في تشكيل صورة

##### الشرق في المخيال الغربي

أسهمت كتابات الرحّالة المستشرقين الأوروبيين في بناء تصوّرات معرفية وأدبية مؤثرة عن الشرق داخل المخيال الغربي، إذ لم تكن مجرد تسجيلات وصفية للمجتمعات، بل أدوات ثقافية وسياسية ساهمت في تكريس صور نمطية عن الإنسان الشرقي وكان لها دور ملحوظ في توجيه المعرفة الأوروبية بالمجتمعات الشرقية. فقد أصبح كتاب *Manners and Customs of the Modern Egyptians* لإدوارد لین مصدرا مرجعيا اعتمد عليه عدد من المستشرقين والرحّالة والبعثات الأوروبية المتجهة إلى مصر، وامتد أثره إلى الأدب الغربي، إذ استلهمت بعض الأعمال الأدبية الصور التي قدّمها عن المجتمع المصري، ولا سيما في الأدب الفيكتوري<sup>33</sup>، مما أسهم في ترسيخ انطباعات نمطية عن "المصري الشرقي" في الوعي الأوروبي ظلت حاضرة لعقود طويلة، وعلى نحو مماثل، تجاوز كتاب شاتوبريان *Itinéraire de Paris à Jérusalem* حدود العمل الأدبي الوصفي ليتحوّل إلى مرجع ثقافي ألهم كتابا وفنانين أوروبيين بارزين، في مقدمتهم ألفونس دي لامارتين *Alphonse de Lamartine* وجيرار دي نرفال *Gérard de Nerval* في تصوّيرهم للشرق، إذ قدّم شاتوبريان الشرق

<sup>33</sup> الأدب الفيكتوري هو الأدب الذي ازدهر في بريطانيا خلال عهد الملكة فيكتوريا (1837-1901)،

ويتميّز بتوجهه نحو الواقعية في تصوير المجتمع والحياة اليومية. عاكسا التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها إنجلترا في القرن

التاسع عشر، مع اهتمام واضح بقضايا مثل الفقر والإصلاح الاجتماعي وحقوق المرأة، ومن أبرز كتّابه توماس كارلايل

(Thomas Carlyle) وجون روسكين (John Ruskin) ووالتر باتر (Walter Pater).

في صورة رومانسية تجمع بين الإعجاب بجماله التاريخي والطبيعي وبين تصويره مجتمعا يفتقر إلى عوامل النهوض والتقدم.

ومن أبرز ما أفضى إليه الخطاب الرحلي من أثر في الدراسات الاستشراقية، أن هذا الحقل لم يعد يُنظر إليه بوصفه مجرد انعكاس موضوعي لحقائق الشرق ووقائعه، بل باعتباره إنتاجا انطباعيا يفرز صورا وتصورات متعددة لا تنفصل عن منظومة القوة والمصلحة، وتشكّل في جوهرها عملية إعادة بناء لصورة الآخر داخل الذهن الغربي. ومن ثمّ يغدو الإستشراق في هذا المنظور موضوع معرفة يتشكّل عبر الخطاب والتمثيل، في حين يظل الشرق الواقعي بمعزل عن تلك التمثيلات التي لا تقوم بينها وبينه علاقة تطابق أو انعكاس مباشر<sup>34</sup>.

ومن هذا المنطلق نظر إدوارد سعيد إلى الاستشراق باعتباره نمطاً من الإنشاء المعرفي والكتابي تدعمه شبكة واسعة من المؤسسات والمفاهيم والأجهزة البيروقراطية المرتبطة بالمشروع الاستعماري<sup>35</sup>، ليغدو بذلك ركيزة من ركائز منظومة الهيمنة الغربية. وهو تصوّر يلتقي مع طرح ميشال فوكو Michel Foucault حول العلاقة الجدلية بين المعرفة والسلطة، إذ يعمل الخطاب الاستشراقي على إنتاج المعرفة وتنظيمها بما يخدم أنماط السيطرة ويديمها<sup>36</sup>.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن سعيد تتبّع في كتابه "الاستشراق" إسهامات عدد واسع من المفكرين والأدباء الأوروبيين الذين أسهموا في بناء هذا الخطاب وترسيخه، إذ أنتجت أعمال عديدة يندرج كثير منها ضمن أدب الرحلة تصوّرات معرفية وثقافية عن الشرق مهّدت لاحقاً لظهور مشاريع سياسية واستعمارية<sup>37</sup>. ومن أبرز هذه الأعمال: الديوان الغربي الشرقي لغوته Johann Wolfgang von Goethe، والشرقيون ليفيكتور هوغو Victor Hugo، وكتاب وعادات المصريين المحدثين وتقاليدهم Edward Manners and Customs of the Modern Egyptians لإدوارد ولیم لين Edward Lane، والرحلة من باريس إلى القدس لشتاتوبريان François-René de

<sup>34</sup> يفوت سالم، حفريات الاستشراق ( في نقد العقل الاستشراقي)، ص 08 .

<sup>35</sup> سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص 37 .

<sup>36</sup> ينظر: فوكو ميشيل، نظام الخطاب، ص 04 .

<sup>37</sup> Edward Said, Orientalism, Op. Cit., p. 21

Chateaubriand، ورحلة في الشرق للامارتين Alphonse de Lamartine، وسلامبو لغوستاف فلووير Gustave Flaubert، ورحلة إلى الشرق لجيرار دي نرفال Gérard de Nerval.

ويذهب إدوارد سعيد إلى أن تلك النصوص لم تكن يوماً تعبيرا أدبيا بربنا أو توثيقا موضوعيا محايدا، بل كانت ركيزة أساسية في منظومة معرفية متكاملة وُظِّفت لبسط الهيمنة الغربية على الشرق وتأييدها. ويلفت سعيد الانتباه إلى أن ثمة منظومة من الأطر الفكرية والعلمية تضافرت في صياغة هذه الرؤية وترسيخها، في مقدّماتها: نظريات العرق والتصنيف البشري، والداروينية، وعلم الأنثروبولوجيا، وفقه اللغة المقارن، فضلا عن المشروع الاستعماري ذاته بوصفه فاعلا سياسيا ومعرفيا في آن واحد؛ وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعةً في ترسيخ فكرة التفوق الحضاري الأوروبي على ما سواه وتقديمها باعتبارها حقيقة علمية راسخة لا مجرد إيديولوجيا مصلحية.<sup>38</sup>

ويتضح مما سبق أن الإطار الفكري والثقافي الذي أسس للخطاب الاستشراقي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر لم يكن مجرد نقاشات نظرية حول الفروق العرقية والتراتبية الحضارية، بل كان ركيزة في منظومة معرفية متكاملة ذات أثر بالغ في المجتمع الغربي. وقد تجلّى ذلك بوضوح في أدب الرحلة الأوروبي، الذي لم يقتصر على تسجيل المشاهد ووصف الأمكنة والعادات، بل تجاوز ذلك إلى ترسيخ رؤى محددة عن مجتمعات الشرق وتصويرها أدنى حضاريا من الغرب. ومن هذا المنطلق أصبحت نصوص رحالة كإدوارد لين وشاتوبريان مكوّنا أساسيا في البنية الخطائية للاستشراق، إذ نقلت التصورات النظرية إلى صور سردية وثقافية رسّخت قراءات نمطية لمجتمعات الشرق وأثّرت في المخيال الأوروبي تأثيرا عميقا وممتدا.

#### الخاتمة:

بناء على ما سبق عرضه وتحليله، يتضح أنّ أدب الرحلة الغربي لم يكن مجرد وسيلة لنقل المشاهدات والانطباعات، بل كان خطابا مشحونا بخلفيات فكرية وثقافية أسهمت في بناء صورة مخصصة عن الشرق. وعليه، يمكن في ختام هذه الدراسة بتسجيل جملة من النتائج التي تكشف عن أبعاد هذا التمثيل ومركزاته، والتي يمكن حصرها في ما يلي:

- تتسم موضوعية أدب الرحلة الغربي بطابع نسبي، إذ تظل محكومة بالسياق الثقافي والسياسي والمرجعية المعرفية للرحالة، مما يجعل اختيار المادة الموصوفة وآلية عرضها خاضعين لرؤية استشراقية مسبقة تُوجّه الخطاب وتُشكّل مساره.

<sup>38</sup> Edward Said, Orientalism, p. 232

- قام تمثيل الشرق في هذه الكتابات على رؤية تنظر إليه بوصفه "آخرًا" مختلفًا يتأرجح بين ماضٍ مقدّس وحاضر متخلّف، و هي رؤية لم تتجه إلى المعرفة المحايدة بقدر ما خدمت غاية الإحاطة بالشرق وتكريس مشروعية التفوق الغربي عليه.
- تكشف نصوص لين عن نزعة تعميمية تختزل المجتمع المصري في سمات محددة كالخرافة واللاعقلانية، مرسّخة صورة نمطية عن الشرق في مقابل غربٍ يُقدّم نموذجاً للعقلانية والتقدم.
- يتسم أدب الرحلة عند شاتوبريان بازدواجية واضحة تجمع بين الإعجاب الرومانسي بالشرق في بعده الديني والتاريخي، وبين الانتقاص من واقعه الحضاري المعاصر، موظفًا اللغة أداةً للتأثير في وجدان القارئ الأوروبي لا لنقل الواقع.
- أسهمت هذه الكتابات في تشكيل "شرق متخيّل" داخل الوعي الغربي استُخدم أداة لتحديد موقع الآخر ضمن تراتبية حضارية منحازة، ولم يُقدّم الشرق فيها واقعا مستقلا بل مرآة تعكس تصورات الغرب عن ذاته.
- لم يقتصر أثر شاتوبريان على تجربته الفردية، بل امتد إلى أجيال لاحقة من الرحالة والأدباء الفرنسيين كلامارتين ونرفال وفلووير، الذين أعادوا إنتاج التصورات ذاتها في سياقات مختلفة.
- أثبتت قراءة إدوارد سعيد أن نصوص الرحالة الغربيين لا يمكن التعامل معها كشهادات وصفية محايدة، بل هي جزء من خطاب استشراقي قائم على ثنائيات تقابلية تُكرّس الهيمنة المعرفية والثقافية.
- و عليه نرى بضرورة إخضاع هذا النوع من الأدب لقراءة نقدية في ضوء مقاربات ما بعد الاستعمار، بما يتيح تفكيك صوره النمطية، والكشف عن الحدود الفاصلة بين ما يقدمه من مادة معرفية وما ينطوي عليه من حمولات إيديولوجية.

## 5. قائمة المراجع:

- إدوارد سعيد، 1995، الاستشراق المعرفة - السلطة - الانشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط4.
- إبراهيم عبد الكريم، 1993، الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان.

- إبراهيم مصطفى و آخرون ، 1960، المعجم الوسيط، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، القاهرة
- إميل يعقوب و بسام بركة ومي شيخاني، 1997 قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي- إنكليزي-فرنسي، دار العلم للملايين، لبنان.
- بطرس انجيل، 1975م الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، مصر، العدد 7، ص ص 50-57
- الزبيدي المرتضى، 2010، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الرياض.
- سالم يفوت ، 1989، حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، المركز الثقافي العربي، بيروت .
- السباعي هيثم رأفت، 2025، مقدمة في تأسيس علم الاستغراب التطبيقي، المكتبة الرقمية الحرة، القاهرة .
- عبد الجبار ناجي، 1981، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، منشورات دار الجاحظ، بغداد.
- فوكو ميشيل، نظام الخطاب، ت.ر. سيلا ، محمد، دار التنوير، لبنان.
- الفيروزآبادي، مجد الدين، 2005، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8 ، لبنان .
- ابن فارس أحمد بن زكرياء، 2001م، معجم مقاييس اللغة، تح: محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان ، دار احياء التراث العربي، لبنان .
- مجدي وهبة وكامل المهندس، 1984، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت،
- محمود حمدي زقزوق، 1997م ، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف ، القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، 2014، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

#### المراجع الأجنبية:

- Chateaubriand, François-René, *Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris*, France: Bernardin-Béchet, 1859.

- Lane, Edward William, *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, *London: C. Knight, 1836*.
- Said, Edward, *Orientalism*, New York: Pantheon Books, 1978.